

رأى فرويد في الأحلام

بقلم الأستاذ حامد عبد القادر

أستاذ التربية وعلم النفس بكلية أصول الدين

إن رأى فرويد في الأحلام مرتبط تمام الارتباط برأيه في اللاشعور أو العقل الباطن ، فلنرى تفهم الأول حق التفهم لا بد من فهم الثانى ، ولذا كان لزاماً علينا أن نقص عليك قصص العقل الباطن كما يراه فرويد ، ولو على وجه الاجمال ، تاركين التوسع فى بحث هذا الموضوع إلى فرصة أخرى .

يرى فرويد ومن تبعه أن للعقل ثلاث شعب: شعبة ظاهرة أو شعورية، وأخرى شبه شعورية، وثالثة باطنة أو لاشعورية (١) .

أما الناحية الشعورية فمنها مكونات العقل فى وقت من الأوقات، أو هى ما يحويه العقل من إدراكات ووجدانات ونزعات ظاهرة يعرفها الانسان ويشعر بها وبآثارها فى حياته لوقته وساعته. وأما شبه الشعورية ، فتتكون من إدراكات ونزعات كانت من نصيب المرء فى حياته الماضية ، ومع ذلك لا يشعر بها ولا تدخل فى دائرة شعوره الآن ، ولكن من الممكن إحضارها واستدعاؤها إلى حفايرة الشعور عند الحاجة إليها ، أو لسبب من الأسباب .

أما الناحية اللاشعورية التى تسمى بالعقل الباطن ، فتتكون من : رغبات ، ومخاوف ، ووجدانات ، ونزعات قامت بالنفس فى الماضى ، ودخلت فى تجارب الانسان فى حياته الغابرة ، لأسباب فى عهد الطفولة ، ثم قضى عليها القانون الاجتماعى ، وحكمت عليها البيئة والظروف الخارجية بالقمع والكبت والاندحار ، فأنحدرت من عالم الشعور إلى عالم اللاشعور فصارت نسياً منسياً .

وعلى مر الزمن تنضم إليها رغبات أخرى لا تتحقق ، فتتكون فى العقل الباطن عقد أو كتل من الرغبات (٢) والمخاوف ، كل منها مكون من رغبات متشابهة ، تظل كامنة مكتوبة (٣) مدحورة تحت غياهب العقل الباطن ، ولكنها تنتهز أية فرصة لمحاولة تحميم ذلك السجن ، والخروج من عالم الخفاء إلى عالم الظهور ، فلا تتمكن من ذلك ، لأن هناك رقيباً (٤) يمنعها من الخروج ؛ ذلك هو العقل الظاهر ، والقوانين الاجتماعية ، أو رغبة الانسان فى العيش فى بيئته عيشة هدوء وسلام .

[1] Conscious, Subconscious and Unconscious.

[2] Complexes [3] Suppressed [4] Censor.

فاذا قويت هذه الرغبات والخاوف ، ولم تجد لها منفذاً مطلقاً ، تغلبت على الرقيب وخرجت قهراً عنه ، وتخلصت من القيود والاعلال ، وحطمت كل ما يحول دون تحررها ، وفى هذه الحالة تظهر على المرء أعراض الجنون أو المرض المسمى أو الاعمال العقلية الشاذة .

ولكنها إذا وجدت لها منفذاً ، ولو بالاحتياط على الرقيب ، سمعت فى الخروج بالتحايل رافة بكيان السجن (العقل الباطن) ، ورغبة فى الاتصال بالعقل القاهر والعيش معه عيشة وئام . واحتياها على الرقيب يشتد وينجح فى أوقات ضعفه أو غفلته عن الرقابة ، أى حينما ينخفض ضغط العقل اليقظ ، كفى حالة النوم ، وأثناء التنويم المغناطيسى ، والمرضى حينئذ تلبس هذه الرغبات غير ملائمتها ، وتنشكر أمام الرقيب ، وتدعى شخصيات غير شخصياتها ، وتخرج إلى الشعور منزوية بأزياء أخرى ، كما هى الحال فى الاحلام الرمزية ، والخيال ، والوهم واتسام الشخصية (١) . وقد تظهر كما هى غير مشوهة أثناء التنويم المغناطيسى ، وتظهر آثار الاشعور فى الشعور أيضاً : بالنسيان ، وغلطات القلم ، وهنوات اللسان ، والاعمال الشاذة ، والهفوات الاجتماعية ، والذعر من الظلمة ، أو صغار الحيوانات ، أو الأمكنة التى ليس لها منافذ .

ففى كثير من الأحيان قد تريد عمل شيء ، كوضع خطاب فى صندوق البريد ، فتنسى مع سبق عزيمة صادقة على إرسال الخطاب ، وقد تريد أن تكتب اسم شخص فتكتب اسم آخر ، أو تدون كلمة فتدون غيرها فيتغير المعنى لا عن قصد ، وقد يقوم الانسان فى الناس خطيباً فينطق بكلمة بدلاً من أخرى فيؤدى ذلك إلى فهم خلاف المقصود ، وكثيراً ما يفعل الانسان ذلك أثناء المحادثة .

ومن الاعمال الشاذة ما قتل عن الدكتور جفسون الأديب الانجليزى المشهور : أنه كلما مر بجارز خشبى لمس يده كل قائمة من قوائمه بحيث إذا أهمل واحدة عاد فلمسها ، ولم يعرف لذلك من سبب . وقتل عن بعض الأشخاص أنهم كانوا يولعون بفعل أشياء خاصة مراراً متعددة فى فترات قصيرة مهما كانت نظيفة .

ومن الهفوات الاجتماعية : الميل إلى الاجرام ، وسرقة أشياء حقيرة من نوع خاص (٢) مهما قلت قيمتها . وقد لوحظ أن السارقين من الأشخاص المحترمين الأغنياء الذين ليسوا فى حاجة إلى ما يسرقون ، وإذا سئلوا فى ذلك عجزوا عن الجواب .

ومن مسائل الذعر ما قتل عن بعض الجنود الأقوياء الشجعان الذين مارسوا القتال ، وقاسوا ما قاسوا فى الخنادق أثناء الحرب العظمى أياما وليالي - أنهم بعد عودتهم من ساحات القتال ، كانوا يخافون الحيوانات الحقيرة كالآرنب والفار والصرصار ، وأن بعضهم كان يخاف الظلمة خوفاً مريماً ، وإذا سألت أحدهم عن السبب أخذه الخزي ولا م تسمه على هذا السلوك الشاذ الذى لم يدر له من سبب .

فهذه الأمور وما أشبهها كانت تفسر في الزمن الماضي بأنها أعمال شاذة يرجع بعضها إلى التعب ، وبعضها إلى المرض ، والبعض الآخر يهمل شأنه ، ويدخل تحت الأعمال الشاذة التي ليست خاضعة لقوانين علم النفس .

أما الآن فقد توصل علماء علم النفس التحليلي (١) - وهم لا يزالون على أبواب البحث - إلى أن هذه الأعمال ليست شاذة لا يمكن تحليلها ، ولكنها هي الأخرى خاضعة لقانون آخر هو قانون العقل الباطن ، وقد أصبح من الممكن تفسير كثير من هذه الحوادث تفسيراً علمياً بفرض وجود العقل الباطن .

وقد اضطر الأطباء النفسيون لدراسة العقل الباطن ، ومعرفة ما فيه من مخاوف ورغبات وعقد رغبات ، لتعرف أسباب الأمراض العصبية وعلاجها ، وقد وجدوا أن الوصول إلى أسباب الخوف يذهب ، وأن معرفة الرغبات المكبوتة يضعف من شأنها ، ويذهب بآثارها السيئة .

ثم تمكنوا بعد البحث المتواصل من ابتداء طرق يتوصلون بها إلى أعماق النفس ، ويسبرون بها غور العقل الباطن . وأهم هذه الطرق هي : (١) تفسير الأحلام (٢) التنويم المغناطيسي (٣) الإيحاء أو الاستمحاء ثم التحريض (٤) التحليل النفسي بتداعي المعاني المقيدة . والطارق الثلاث الأخيرة ترمى إلى شيء واحد ، هو إزالة الضغط الشعوري عن العقل الباطن ، وإعطاء المريض فرصة لإخراج ما كمن في نفسه من الأفكار ، والتعبير عما يعود له من الذكريات والرغبات الماضية .

فتفسير الأحلام إذن من الوسائل التي تعرف مكونات العقل الباطن ، ولذا يقول فرويد : « إن الأحلام الرمزية ما هي إلا مجموعة رموز يشير كل منها إلى رغبة من الرغبات المكبوتة ، فإذا رأيت في حلم من الأحلام أن ثعباناً هاجمك فضربته فصرعته ، فالثعبان يمثل عدواً من أعدائك السابقين ، وصرعه يمثل الانتصار عليه ، وفي ذلك إرضاء لرغبتك » .

ويمثل فرويد تحقق الرغبات المكبوتة أثناء النوم ، بأنها لو لم تتحقق لحصل الاضطراب في النوم ، وما كان من الممكن أن يظل الإنسان نائماً ؛ فلتخفيف العبء على النائم ، وإخراجه من المواقف الحرجة تتحقق الرغبات ، فيظل النائم هادئاً مطمئناً ، وذلك تبعاً للطريقة العامة التي يتبعها العقل الباطن في الدفاع عن النفس والمحافظة على كيانها ، ولذا نرى أنه إذا لم تتحقق رغبة من الرغبات أثناء الحلم ، أو لم يظهر الحلم بمظهر المتغلب بل بمظهر المقهور المغلوب ، فإنه يستيقظ من نومه وجلاً مذعوراً .

ولو وقف فرويد عند هذا الحد لوافقه معظم المتقدمين والمحدثين ، ولكنه يقول : إن

[1] Psychoanalysis. [2] Psychotherapists.

التميز في المثال السابق يمثل الأب مثلاً، الذي كنت تعدد - وأنت صغير - أكبر منافس لك في التقرب إلى والدتك ، والحصول على محبتها وعنايتها ، وقد كنت في ذلك الوقت تود التغلب على أهلك واحتكار عطف أمك ومحبتها ، ولكن أباك حال دون هذا فكرته لذلك التدخل ، ولكنك في الوقت نفسه ، حببته لعطفه عليك ، فتكونت مشكلة أو عقدة وجدانية هي مزيج من الكراهية والمحبة ، فظهرت المحبة لعدم معارضة الظروف لها ، أما الكراهية فاندحرت واستكانت إلى اللا شعور فبقيت هناك ، وأضيف إليها وجدانات أخرى ضد الأب ، فلما عفدت مجموعة الوجدانات هذه حاولت الظهور فظهرت أثناء النوم بتلك الصورة المذكورة .

وقد ترى أن شخصاً توفي ، وبالتحليل تعلم أن ذلك الشخص يمثل أباك أو أخاك ، أو أحد الأشخاص الذين نازعوك سيطرتك ، أو حالوا دون تمتعك برغباتك الذاتية ، فوددت لو كانوا بعيدين عنك ؛ وكذلك يؤول حصولك على سيارة جارك بالحصول على وظيفته أو زوجته التي تمنيتها لنفسك يوماً ما .

فعلى كل حال يرى فرويد أن وظيفة جميع الأحلام هي تحقيق الرغبات المكبوتة ، وأن معظم تلك الرغبات - إن لم يكن كلها - يرجع إلى الغريزة الجنسية ، أو إلى حبة الانتقام ممن حال دون تحقق الرغبات الذاتية الجنسية .

ويجمل فرويد للأحلام منزلة كبرى في التحليل النفسي ، ويتخذ تحليلها من أكبر الوسائل لمعرفة أسباب الاضطرابات والأمراض العصبية ، لأنها تدل على الرغبات المكبوتة التي أثرت على الحياة العقلية .

وفوق ذلك يقول : إن الأحلام إذا فسرت تفسيراً دقيقاً تدلنا تماماً على طبيعة صاحبها وميوله وأخلاقه التي يحاول إخفاءها وسترها عن أعين الرقباء وآذانهم .
قصور هذا الرأي (١)

هذه هي خلاصة رأي فرويد في الأحلام ، وله - كما ترى - نصيب من الصحة ، ولكنه مع ذلك جزء من الحق لا الحق كله .

إننا لا ننازع فرويد في أن وظيفة كثير من الأحلام هي تحقيق رغبات مكبوتة ، ولكننا نرى مع ذلك أن هناك أحلاماً مرتبطة بالمستقبل ، وليس لها علاقة متينة بالماضي ، وهي التي تكون نوعاً من الاخبار بالغيب ، وكذلك لا نعرف كيف يؤول فرويد الأحلام التنبؤية الآتية الذكر التي يرى الإنسان فيها ما حصل بالفعل أثناء حادثة من الحوادث .

هذا إلى أن فرويد يذهب بعيداً في تقدير اللا شعور ، وينحى ما لا يتحمل من الأهمية ، حينما يقول إن الأحلام لا تتحقق إلا الرغبات المكبوتة التي تحتل اللا شعور ، إذ أننا نعرف أن كثيراً من الرغبات الشعورية تتحقق في أحلام اليقظة والنوم أيضاً .

[1] See Woodworth "Psychology" PP.507

[البقية على الصفحة رقم ٤١٤]